

المقاومة الفلسطينية في النتاج الأدبي الفلسطيني؛ سرديات المقاومة والشتات

Palestinian Resistance in Palestinian Literature Narratives of Resistance and Diaspora

د. نور الهدى العيفة

جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريـج (الجزائر)

nourelhouda.laifa@univ-bba.dz

تاريخ القبول: 2025/06/30

تاريخ الإرسال: 2025/06/15

ملخص:

إن المقاومة الفلسطينية تغذت من الكتابة، بل ولدت وترعرعت في رحمها حيث وجدت المناخ الداعم والمتنفس المريح للتعبير والرفض والانتفاضة.

وعليه كان مبتغى السرد الذي تبني القضية الفلسطينية وتحديث عن المقاومة هو تسليط الضوء على كل الجوانب الإنسانية، وكنوع من التشخيص للواقع المرير في ثنايا السرد العربي عموما والفلسطيني خصوصا، وهذا ما أدى لظهور دور المقاومة الأدبية الذي لا يقل شأنًا عن دور المقاومة بالسلاح في الواقع.

الكلمات المفتاحية: فلسطين، المقاومة، الأدب، الرواية.

Abstract:

The Palestinian resistance was nourished by writing, but it was born and nurtured in its womb, where it found a supportive climate and a comfortable outlet for expression, rejection and uprising.

Therefore, the narrative that adopted the Palestinian cause and talked about the resistance was intended to shed light on all human aspects and as a kind of diagnosis of the bitter reality within the Arab narrative in general and the Palestinian narrative in particular, which led to the emergence of the role of literary pen resistance, which does not say about the role of realistic resistance.

keywords: Palestine, resistance, literature, novel.

تمهيد:

لم تقتصر المقاومة على السلاح والقتال في أرض الميدان بل حتى القلم والورقة كانتا جنباً لجنب مع البندقية والرصاص؛ فأحياناً يصيب القلم العدو أكثر مما تصيبه البندقيات والحجارة، وأسلحة المقاومة؛ ولذلك كان النتاج الأدبي الفلسطيني وحتى العربي عموماً ساحة للمقاومة، حيث وصّف المقاومة الفلسطينية وآلامها وأملها، ونقل الواقع بكل تفاصيله شعراً وسرداً.

1/ المقاومة والرّواية العربيّة:

وردت لفظة المقاومة في لسان العرب في سياق المجابهة، ف «قاومه في المعارك وغيرها وتقاوموا في الحرب أيّ قام بعضهم لبعض»⁽¹⁾، ممّا يعني القتال ومواجهة العدو أي وجود صراع بين طرفين. وفي الاصطلاح عرفها حسن جمعة على أنّها: "منظومة متكاملة من وسائل الدّفاع، إعدادا واستعدادا، مواجهةً وقتالاً بالكلمة والموقف والسّلاح" فهي رفض لكل أنواع المستعمر، وهي الصراع بين الأنا والآخر بالسلاح والكلمة. فالمقاومة "ليست شهوةً في العنف والقتل والاعتداء على الآخر، وإمّا هي دفع الأذى والقبح والشّر والفساد والاحتلال عن الذات الإنسانية ومقاومته بكل السّبل المتاحة"⁽²⁾؛ أي أنّ المقاومة هي ردة فعل طبيعة على فعل الاعتداء وليست نابعة عن رغبة في العنف والأذى.

ومنه تولّد ما يسمى بأدب المقاومة؛ المنجز الذي نجده حاضراً لدى كلّ أمة رافضة للاستعمار والخضوع، فهو نتيجة للاعتداء والعنف والظلم، حيث "يدفع بمشاعرها وأحاسيسها لرفض هذا العالم والتّمرّد عليه والانقلاب على المفاهيم أو الخضوع له، والتّعامل معه بوصفه أمراً واقعياً، وبالتالي فإنّ هذا الأدب الإنساني يلتزم عادة بالقضايا التّحريرية"⁽³⁾. فهو الأدب الملتزم بقضايا معينة من قضايا الأمة وجب عليه الدفاع عنها ومعالجتها تحت مسمى الالتزام قالت هبة إبراهيم عن أدب المقاومة أنه أدب: « يعمل على تغيير الحالات الذهنية والمشاعر ويحثّ النّاس على العمل والافتداء بالتمّاذج النّاجحة والتّجارب المفيدة، والتّركيز على الطّروف الصّعبة التي يعيشها النّاس»⁽⁴⁾. وبذلك يركز أدب المقاومة على المواقف والظروف الصعبة التي يمرّ بها شعب من الشعوب، مثل الشعب الفلسطيني المقاوم.

2/ أزمة المحتل:

تعتبر أزمة المحتل من الأزمات التي أصابت المبدعين العرب والفلسطينيين تحديدا بأرق الكتابة ومغص الإبداع، ووجب البحث لها عن علاج فكانت الكتابة والرفض أدبيا من الأدوية التي أراحت المبدعين لأنهم تمكنوا من التعبير عن أفكارهم وأحاسيسهم، فأزمة المحتل وفعل الاحتلال هو خطر يهدد الحرية والأرض ويؤدي إلى سلب الحقوق والممتلكات، وحفاظا عليها ظهر أدب المقاومة «لهذا انحاز الأدباء والكتّاب إلى قضايا أمتهم وطفقوا يقدّمون الهدف من الأدب والكتابة الملتزمة، في صميم الأزمة أو الحدث الذي ترك في نفوسهم ندبات عظيمة»⁽⁵⁾.

ولهذا يتميز أدب المقاومة بخصائص فريدة لتمييز موضوعاته وقضاياها ولأنه "يتغذى من لهيب الثورة الغاضبة التي تأججت على نار حبّ الوطن والانتماء الأصيل إلى الأرض، فشرع يدافع عنها ويواجه كلّ معتدٍ غاصب بالكلمة الحرة الصادقة، وبالموقف التضالي الصّامد"⁽⁶⁾ فالأديب يلتزم بمعالجة قضايا وطنه. وقد بدأت شرارة الإبداع المقاوم مع الروائي الفلسطيني "غسان كنفاني"، الذي يعتبر الأب الروحي لأدب المقاومة الفلسطينية وكتاباته هي أرض خصبة للرد بالكتابة.

ارتبطت المقاومة الأدبية حدّ الانصهار بالشعب الفلسطيني وقضاياها وثورته ضد الاحتلال الصهيوني، حيث يضمّ الأدب الفلسطيني تاريخا حافلا يعرض المقاومة بمراحلها المتتالية. حيث لا يمكننا بأيّ شكل من الأشكال أن ننسى وعد بلفور الذي كتب عنه الكثير من الأدباء الفلسطينيين والعرب، كما لا ننسى النكبة 1948، ثم نكسة 1967 الى غاية الانتفاضة الفلسطينية عام 1987، فهي جميعا مثار منجز الأدباء تحت مسمى أدب المقاومة.

3/ رواية المقاومة والشتات في النتاج الأدبي الفلسطيني:

لم تكن نشأة الرواية الفلسطينية منذ مطلع القرن العشرين نشأة عادية فهي وليدة رحم مريض مزدحم بالمشاكل والقضايا الشائكة، وقد تطوّرت تدريجيا مع الأحداث التي مرّت على فلسطين، وثمة «إشارات تؤكّد ظهورها في القرن الماضي، ففي الجزء الثاني من كتاب "أعلام الأدب والفن" إشارة أنّ الشيخ أحمد التميمي من الخليل، هو "أول من أبرز رواية بالعربية

وسمّاها (أم حكيم)»⁽⁷⁾. كما كان للترجمة دور فعال في ظهور ونشأة الرواية الفلسطينية وتطورها مثال ذلك ما قدمته سلسلة "التفاس العصرية" للقارئ، وما ورد فيها: «فلا يخفى ما للروايات -على اختلاف مواضعها- من التأثير الخطير في القلوب والعقول حتى اعتبرت أنّها من أعظم أركان المدينة بالنظر إلى ما تستنبطه من الحكمة في تثقيف الأخلاق، وما تنطوي عليه من العبر والمواعظ في تنوير الأذهان، ولما كان لها هذا المقام الرفيع (...). عقدنا النيّة على إصدار هذه المجموعة الأدبيّة نضمتها من الروايات الأدبيّة والفكاهات العصرية وغير ذلك»⁽⁸⁾. وبذلك فللكتاب - وبخاصة الرواية - دور مهم في التأثير على الرأي العام والآراء والأفكار أي إنّها نوع من أنواع المقاومة لأنّها تؤدي دورا من أدواره.

كان لـ "أحمد شاكر الكرمي" دورا بارزا في الرواية العربية، فهو مؤسس مجلة "الميزان" وقد ساهم من خلالها في تطور الرواية الفلسطينية وانفتاحها على الآخر، فالحدود المعرفية تعدت الحدود الفلسطينية وأصبحت القضية الفلسطينية من خلال الأدباء صوتا مدويا في العالم وقضية رأي عام. فالرواية تناولت الواقع المعاش للفلسطينيين منها رواية "على سكة الحجاز" لجمال الحسني، التي عالجت موضوع التهجير من القرية وتحديث عن كل ما عناه سكان القرية من خوف وهلع، وكانت ثنائية التضحية والوطنية تفوح بين ثنايا السرد. و"رواية طفولتي حتى الآن" و"شمس اليوم الثامن" لإبراهيم نصر الله ورواية "أين المفر" لخولة حمدي ورواية "غزة حجر الزاوية" لجوي منصور و"وحيدة أصمّر تحت شجرة الليمون" لمنى ظاهر... والكثير من الأعمال الروائية، فقد تأثرت الرواية الفلسطينية أو التي تناولت القضية تأثرا مباشرا أو غير مباشر، ساهم في تحديد خصوصيتها كنتيجة لمؤثرات عديدة، منها النكبات المتكررة، مثل نكبة 1948 وهزيمة أكتوبر 1967، وغيرها من الأحداث. وقد سببت صراعات نفسية لدى المبدعين وقد زحفت على كتاباتهم.

يشير الباحث "فاروق وادي" في كتابه "ثلاثة علامات في الرواية الفلسطينية" بأن خصوصية الرواية الفلسطينية تبرز من خلال ثلاثة روائيين هم: "غسان كنفاني" (1936-1972) و"جبرا إبراهيم جبرا"، وخاصة في مجال الرواية. «ولم يكن الوقوع على هذه الأصوات الثلاثة - أو العلامات الثلاث - ضربا من المصادفة العشوائية أو تعسفا أملت نزعاً انتقائية في

الاختيار، بل إنّه جاء بعد دراسة حاولت جهدها أن تتقصّى مسيرة تطور الرّواية الفلسطينية منذ محاولاتها الأولى وحتى الآن»⁽⁹⁾.

الملاحظ أنّ الرّواية الفلسطينية تفاعلت مع كلّ مرحلة، وتعرّضت لأحداث كثيرة مرت على المجتمع الفلسطيني، خاصة بعد النكبة الأخير التي تعدّ مادة ثرية للإبداع، حيث عبر الروائيون عن المآسي الشخصية والجمعية في أعمالهم الرّوائية، هوية، وغربة، ولجوءا وشتاتا.

"إنّ الحديث عن رواية المنفى الفلسطينية يحيلنا إلى الخوض في سؤال الهوية لرواية المنفى فنجد الكثير من الروائيين العرب كتبوا عن فلسطين، والكثير من الفلسطينيين المهجرين قد كتبوا عن فلسطين لذا وجب أن نفرّق بين الرّواية الوطنية ورواية المنفى. فلقد عاش بعض الروائيين الفلسطينيين خارج فلسطين في الشتات، وصدرت لهم روايات تعالج قضايا فلسطينية منها رواية "السّفينة" لـ "جبرا خليل جبرا"، هنا نجد أنّ الفلسطيني يعيش داخل وطنه أو خارجه يحمل فلسطين في قلبه، ويتشبّث بترابه وأمل العودة، وهذا ما جعل تصويره أكثر دقّة. ومن الروائيين الذين صوّروا الحياة الفلسطينية داخل مخيّمات الشتات "صباحي الفحماوي" فرواياته لا تخلو من بعدها الإنساني، فهي أقرب إلى الملحمة السردية، وقد درست الناقدة الدكتورة "ماجدة صلاح" حضور المأساة الفلسطينية في رواياته.

4/ سردية الشتات في النص الروائي وإشكالاتها:

شهد المجتمع الفلسطيني أنساقاً من التحوّلات، بسبب الكيان الصهيوني الذي مارس كلّ أشكال الظلم والتهجير والإبادة على الشعب الفلسطيني، ممّا فرض أنماطا من ارتحال الفلسطينيين على شكل موجات من الهجرة الجماعية إلى دول الجوار والخليج العربي وسائر البلدان العربية، ليجد الفلسطيني نفسه بعيدا عن الوطن والأرض والانتماء وفي مكان لم يختار الذهاب إليه عن قناعة بل عن إجبار فعاش الغربة والشتات والضياع.

فالشتات يعني افتراق شعب عن وطنه الأمّ، ليعيش في أوطان مختلفة بعيداً عن وطنه الأصلي، فيعيش على أمل العودة تُنازعه عواطف الشوق والقلق والاضطراب، ومع مرور الوقت يجد المشتت نفسه أمام أزمة البحث عن الهوية وإثبات الوجود. وترى "ماجدة حمود"

أنّ الشّتات الفلسطيني اقتلاع للإنسان الفلسطيني من جذوره وبعرته ليعيش مشتتا بعيدا عن أهله ووطنه فاقدًا كلّ شيء تقريباً⁽¹⁰⁾.

يعد الشّتات الفلسطيني مشكلة وجودية ترتبط بالأنا الجمعية التي تشترك في التمزق والمعاناة والضياع للإنسان، وهما أكثر الجانبين تأثيراً على نفسية الإنسان، حيث وجد اللاجئ الفلسطيني نفسه في عوالم مجهولة، نتيجة سياسة القمع والتّهجير القسري من طرف الصهاينة وحتى الفلسطيني داخل وطنه يشعر نفس الشعور. ولذلك فإنّ تيمة الشّتات جاءت في الكثير من الدّراسات، وأمست قضية مفصلية في الأدب الفلسطيني وأصبحت صرخة مطالبة بحق العودة، وهي من أهم حقوق الإنسان وكلّ ما نجده في الأدبيات الفلسطينية التي تمثّل المأساة الفلسطينية؛ قد اتّخذ أبعاداً وتصورات جديدة عن طريق السرد أو التّخيل وحتى الشّعور، مما رسم حدوداً لمفهوم خطاب الشّتات الفلسطيني وتحديدًا عبر الرواية⁽¹¹⁾.

كما عُنيّت الرواية الفلسطينية بتيمة المنفى؛ بوصفها تصوّر الواقع الفلسطيني بواسطة اللغة، غير أنّنا نلمح تشبّهًا في بناها ومضامينها بسبب تشبّه منظومة الأنا الفلسطينية المنتجة فالرواية الفلسطينية تصدر عن أدباء من خارج فلسطين وبتشعب المكان انشر الموضوع.

يصوّر خطاب الشّتات الفلسطيني -بشكل عام- مرارة الابتعاد عن الوطن الأم، ويعبّر عن معاناة الشّعب الفلسطيني وقمع مقاومته، إذ يعدّ الشّتات رافداً من روافد خطاب ما بعد الاستعمار لأنّه نتج بفعل ممارسات استعمارية، هذا الخطاب كان هدفه إيصال صوت المضطهدين من طرف المستعمر، والتعبير عن الرّغبة في التّحرّر ورفض الدّل والاستسلام فتحدّث الخطابات كلّ التّمثيلات والسرديات التي صورت الدّول المستعمرة متخلّفةً في جميع المجالات حتّى تكسب التّعاطف العالمي وشرعية استعمارها للشّعوب المستضعفة.

ولعلّ أهم ما ميّز خطاب الشّتات هو الصّراع في ظلّ المحافظة على الأنا الفلسطينية ومحاولة التأقلم خارج الوطن، لذلك يسعى الفلسطيني دائماً إلى التّعريف بهويته وإثباتها من خلال الصّراع مع المحتل الصهيوني.

إنَّ سرديّة الشتات الفلسطيني في الأصل هي خطاب لمحاربة المقولة الصّهيونية الشّائعة أنّ أرض فلسطين هي «أرضٌ بلا شعب مُنحت لشعب بلا أرض»⁽¹²⁾، وكلّنا نعلم أنّ الشّعب الفلسطيني أخرج عنوة من بلاده، فراح يبحث عن أماكن يستقرّ فيها من أجل استمرارية حياته، لذلك يتميّز أدب المثقف المنفي عموماً «بعدم القدرة على تأسيس علاقة مع الأماكن الطّائرة، فهو دائماً في حالة حنين للجذور والوطن»⁽¹³⁾ ويظلّ يشعر أنّه مهمشٌ خارج وطنه حتى وإن كان في بلد عربيّ فهو يحمل اسم لاجئٍ حتّى وإن منحت له كلّ الحقوق.

فاللسطيني يعيش شتاتين، شتات لحظة خروجه من الوطن الأم، وشتات لحظة دخوله واستقراره في أوطان جديدة يسعى فيها لاكتساب أبسط الحقوق، ولهذا نجد خطاب الشتات الفلسطيني يجسّد بقوة الصّراع حول الأرض والتاريخ. ومن القضايا الّتي عالجتها كتابات الشتات الفلسطيني، رحلة النّفي والخروج ومرارتها بدءاً بالانتداب البريطاني فالنّكبة، إضافة إلى معاناة الفلسطينيين في مختلف الدّول منها العربيّة كالأردن وسوريا ولبنان والخليج ومصر وبدرجة أقلّ الدّول غير العربيّة⁽¹⁴⁾.

دخلت عملية الشتات في أطوار من التّحوّلات تمثّلت أولاً بالصّدمة، ومن ثمّ النّفي، وتعقبها محاولات العودة إلى الوطن، تليها مرحلة الوعي وفهم الواقع وتحليله، وإعادة إنتاجه وتصويره، فهضمت الكتابة الفلسطينية على تحليل ذلك من داخل الوطن وخارجه⁽¹⁵⁾. فالرّواية الفلسطينية تقوم على وعي بالشتات، وتصوّر حالة التّشظّي والتّبعر التي يعيشها الفلسطينيون في أماكن مختلفة بعيداً عن الوطن الأم، تحدث "الصّدمة" حين يجد نفسه يقتلع من جذوره بغير وجه حق وربما هذا ما تصوّره روايات عديدة أمثال "أرض البرتقال الحزين" لغسان كنفاني فتبعثر البرتقال يرمز إلى تشتت الفلسطينيين وتبعثرهم في أنحاء العالم.

يتّضح الشتات بوصفه شكلاً مرتبطاً بالمكان، فاللاجئون في المخيمات الفلسطينية هائمون في أمكنة مؤقتة، وهكذا نجد حضور المخيم في عدد كبير من الرّوايات، وقد وصفه "ساري حنفي" بأنّه الفضاء المؤقت.

وفي ظلّ الشتات المتعدّد، والحياة المضطربة القلقة نشأت كتابات تخضع لجغرافيا المكان الّتي توزّعها الشتات الفلسطيني، فالتهجير مسّ فلسطين من الدّاخل في الضفة وقطاع غزة وخارج فلسطين (الدّول المحيطة)، ونجد الكتابة في البلدان المستضيفة تخضع للمناخ الّتي

تتموضع فيه، كما عاش بعض الفلسطينيين شتاتا مركبا مزدوجا؛ حين تم تهجيرهم للمرة الثانية كما في الكويت أثناء الغزو العراقي للكويت⁽¹⁶⁾.

من المعلوم أنّ اللغة تشكّل مركزا محوريا في إدراك ذواتنا، وبغياها تتلاشى هويتنا وقوميتنا ونجد بشرى إبراهيم مهوي يشير إلى أهمية الترجمة ودورها في المقاومة الثقافية لاسترجاع الهوية المسلوّبة جراء الشتات، وهو ينطلق من أنّ اللغة تخلق أفكارا وتمثيلات حول فلسطين التي تتنازعها الأديان المختلفة، وكلّ طرف يحاول أن يدّعي بلغته أنّها أرضه، فالفلسطينيون ليسوا ضحية خارقة فقط، وإثما ضحية اللغة أيضا.

وقد طرح كتاب "Palestinian diaspora" إشكالية الهوية اللغوية، والتشتت اللغوي الاجتماعي لدى الفلسطينيين، فاللغة في كتابة الشتات حملت عدة وظائف حيث نقلت تجارب الفلسطينيين وصورت الأمكنة التي تنازعتهم ولغاتها، فراحوا يبحثون عن مكان لصوتهم الخاص، فأصبحت اللغة أكثر من أداة تواصل بل هي السلاح ضدّ الجلاّد⁽¹⁷⁾. والحقيقة أنّ أدب الشتات لم يستطع أن يؤسّس علاقة مع الأمكنة الطارئة لأنّه في حالة حنين دائم للوطن تراوده آمال العودة والاستقرار. حيث تحضر غربة الفلسطينيّ وشتاته في الرواية العربية كما في "نجران تحت الصفر" ليحيي يخلّف، و"براري الحمى" لإبراهيم نصر الله، و"الطريق إلى بلحارث" لجمال ناجي.

ولكي ينهي الفلسطيني هذا الشتات ويعود إلى أرضه لابدّ أن يزيل أسباب الشتات وعوامله، وهذا لن يتحقّق إلا بالمقاومة، وهذا ما وجدناه في معظم الروايات الفلسطينية ومنها رواية "طيور الحذر" لإبراهيم نصر الله، والتي تجسّد معاناة الشعب الفلسطينيّ النازح، والإحساس بالانكسار، والحلم بالعودة؛ بحيث صوّر الكاتب هذه الحياة من خلال حديثه عن طفل ولد وعاش في المخيمّ يحسد الطيور على حريّتهم، ويعلمهم الحذر لكي لا يقعوا في فخّ الاصطياد⁽¹⁸⁾.

وعلى الرواية عموما والأدب خصوصا الاستمرار في المقاومة والكتابة ونقل المعاناة ووصف الشتات حتى تبقى القضية حية في الكتابة الأدبية، تضخ دماءها كتابات المبدعين العرب والفلسطينيين خاصة فهم أكثر تعبيرا لأنهم عاشوها أما عن القضية فهي تمس العرب والمسلمين جميعا.

الهوامش والإحالات

- 0- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ص7821.
- (2) - حسن جمعة: ملامح في الأدب المقاوم فلسطين أنموذجا، منشورات الهيئة العامة لكتاب وزارة الثقافة دمشق، دط، 2009، ص34
- (3) - عادل أسطة: أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات، مؤسسة فلسطين للثقافة، سوريا دمشق، ط2، 2008، ص09.
- (4) - هبة إبراهيم علي شقيريات: مستوى معرفة طلبة جامعة القدس بالأدب الفلسطيني المقاوم وعلاقته باتجاههم نحوه، إشراف عفيف حافظ زيدان، عمادة الدراسات العليا، جامعة القدس، 2011، ص18
- (5) - حسن جمعة: ملامح في الأدب المقاوم في فلسطين، ص34.
- (6) - حسن جمعة: ملامح في الأدب المقاوم في فلسطين، ص133.
- (7) - فاروق وادي: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1981 ص15.
- (8) - ينظر: فاروق وادي: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، ص15.
- (9) - ينظر: فاروق وادي: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، ص302.
- (10) - ينظر: ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، عالم المعرفة، الكويت، دط، ص11
- (11) - ينظر بتصرف: رامي أبو شهاب: في الممر الأخير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان دط، دت ص75-76.
- (12) - فخري صالح: فلسطين في مرآة أخرى، أصوات جديدة في الرواية- القصة في فلسطين، مجلة الدراسات الفلسطينية، خريف 2013، ص43.
- (13) - رامي أبو شهاب: في الممر الأخير، ص117.
- (14) - ينظر: رامي أبو شهاب: في الممر الأخير، ص83.
- (15) - ينظر: المرجع نفسه، ص85.
- (16) - ينظر: رامي أبو شهاب، في الممر الأخير، ص94.
- (17) - ينظر: المرجع نفسه، ص106-107.
- (18) - ينظر: رامي أبو شهاب: في الممر الأخير، ص318.